سورة الماعون

سميت هذه السورة في كثير من المصاحف وكتب التفسير (سورة الماعون) لورود لفظ الماعون فيها دون غيرها .

وسميت في بعض التفاسير (سورة أرأيت) وكذلك في مصحف من مصاحف القيروان في القرن الخامس ، وكذلك عنونها في (صحيح البخاري) .

وعنونها ابن عطية ب (سورة أرأيتَ الذي) . وقال الكَواشي في (التلخيص) (سورة الماعون والدين وأرأيت) ، وفي (الإِتقان) : وتسمى (سورة الدين) وفي (حاشيتي الخفاجي وسَعدي) تسمى (سورة التكذيب) وقال البِقاعي في (نظم الدرر) تسمى (سورة اليتيم) . وهذه ستة أسماء .

وهي مكية في قول الأكثر . وروي عن ابن عباس ، وقال القرطبي عن قتادة : هي مدنية . وروي عن ابن عباس أيضاً . وفي (الإِتقان) : قيل نزل ثلاثٌ أولها بمكة إلى قوله : (المسكين ((الماعون : 3) وبقيتها نزلت بالمدينة ، أي بناء على أن قوله : (فويل للمصلين ((الماعون : 4) إلى آخر السورة أريد به المنافقون وهو مروي عن ابن عباس وقاله هبة الله الضرير وهو الأظهر .

وعدت السابعة عشرة في عداد نزول السور بناء على أنها مكية ، نزلت بعد سورة التكاثر وقبل سورة الكافرون .

وعُدت آياتها ستاً عند معظم العادين . وحكى الآلوسي أن الذين عدّوا آياتها ستّاً أهل العراق (أي البصرة والكوفة) ، وقال الشيخ علي النوري الصفاقسي

" صفحة رقم 564 "

في (غيث النفع) : وآيها سبع حِمصي (أي شامي) وست في الباقي . وهذا يخالف ما قاله الآلوسي .

أغراضها

من مقاصدها التعجيب من حال من كذبوا بالبعث وتفظيع أعمالهم من الاعتداء على الضعيف واحتقاره والإمساك عن إطعام المسكين ، والإعراض عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة لأنه لا يخطر بباله أن يكون في فعله ذلك ما يجلب له غضب الله وعقابه .

) أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (

الاستفهام مستعمل في التعجيب من حال المكذبين بالجزاء ، وما أورثهم التكذيب من سوء الصنيع . فالتعجيب من تكذيبهم بالدين وما تفرع عليه من دَعّ اليتيم وعدم الحضّ على طعام المسكين ، وقد صيغ هذا التعجيب في نظم مشوّق لأن الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتى من تعرف المقصد بهذا الاستفهام ، فإن التكذيب بالدين شائع فيهم فلا يكون مثاراً للتعجب فيترقب السامع ماذا يَرِد بعده وهو قوله : (فذلك الذي يدع اليتيم).

وفي إقحام اسم الإشارة واسم الموصول بعد الفاء زيادة تشويق حتى تقرع الصلة سمع السامع فتتمكن منه كَمَالَ تَمكُّن .

وأصل ظاهر الكلام أن يقال : أرأيت الذي يكذب بالدين فَيدُع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين .

والإشارة إلى الذي يكذب بالدين باسم الإشارة لتمييزه أكملَ تمييز حتى يتبصر السامع فيه وفي

صفته ، أو لتنزيله منزلة الظاهر الواضح بحيث يشار إليه .
والفاء لعطف الصفة الثانية على الأولى لإفادة تسبب مجموع الصفتين في

" صفحة رقم 565 "
الحكم المقصود من الكلام ، وذلك شأنها في عطف الصفات إذا كان موصوفها واحداً مثل قوله تعالى : (والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً ((الصافات : 1 3) .
فمعنى الآية عطفُ صفتي : دَع اليتيم ، وعدم إطعام المسكين على جزم التكذيب بالدين .
وهذا يفيد تشويه إنكار البعث بما ينشأ عن إنكاره من المذام ومن مخالفة للحق ومنَافياً لما تقتضيه الحكمة من التكليف ، وفي ذلك كناية عن تحذير المسلمين من الاقتراب من إحدى هاتين الصفتين بأنهما من صفات الذين لا يؤمنون بالجزاء .
وجيء في) يكذب (، و) يدُعّ (، و) يَحُضّ (بصيغة المضارع لإفادة تكرر ذلك منه ودوامه .
وهذا إيذان بأن الإِيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة حتى يصير ذلك لها خلقاً إذا شبت عليه ، فزكت وانساقت إلى الخير بدون كلفة ولا احتياج إلى آمر ولا إلى مخافة ممن يقيم عليه العقوبات حتى إذا اختلى بنفسه وآمن الرقباء جاء بالفحشاء والأعمال النَّكراء .
والرؤية بصرية يتعدى فعلها إلى مفعول واحد ، فإن المكذبين بالدين معروفون وأعمالهم مشهورة ، فنزّلت شهرتهم بذلك منزلة الأمر المبصَر المشاهد .
وقرأ نافع بتسهيل الهمزة التي بعد الراء من) أرأيت (ألفاً . وروى المصريون عن ورش عن نافع إبدالها ألفاً وهو الذي قرأنا به في تونس ، وهكذا في فعل (رأى) كلما وقع بعد همزة

استفهام ، وذلك فرار من تحقيق الهمزتين ، وقرأه الجمهور بتحقيقهما .
وقرأه الكسائي بإسقاط الهمزة التي بعد الراء في كل فعل من هذا القبيل . واسم الموصول وصلتُه مراد بهما جنس من اتصف بذلك . وأكثر المفسرين درجوا على ذلك .
وقيل : نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وقيل : في الوليد بن المغيرة

" صفحة رقم 566 "

المخزومي ، وقيل : في عمرو بن عائذ المخزومي ، وقيل : في أبي سفيان بن حرب قبل إسلامه بسبب أنه كان يَنحر كل أسبوع جَزوراً فجاءه مرة يتيم فسأله من لحمها فقرعه بعصا . وقيل : في أبي جهل : كان وصياً على يتيم فأتاه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه دفعاً شنيعاً .
والذين جعلوا السورة مدنية قالوا : نزلت في منافق لم يسموه ، وهذه أقوال معزو بعضها إلى بعض التابعين ولو تعينت لشخص معين لم يكن سبب نزولها مخصِّصاً حكمَها بمن نزلتْ بسببه .
ومعنى) يدع (يدفع بعنف وقهر ، قال تعالى : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ((الطور : 13) .
والحض : الحث ، وهو أن تطلب غيرك فعلاً بتأكيد .
والطعام : اسم الإِطعام ، وهو اسم مصدر مضاف إلى مفعوله إضافة لفظية . ويجوز أن يكون الطعام مراداً به ما يطعم كما في قوله تعالى : (فانظر إلى طعامك وشرابك ((البقرة : 259) فتكون إضافة طعام إلى المسكين معنوية على معنى اللام ، أي الطعام الذي هو حقه على الأغنياء ويكون فيه تقدير مضاف مجرور ب (على) تقديره : على إعطاء طعام المسكين .

وكنى بنفي الحضّ عن نفي الإطعام لأن الذي يشحّ بالحض على الإطعام هو بالإطعام أشح كما تقدم في قوله : (ولا تحاضون على طعام المسكين (في سورة الفجر وقوله : (ولا يحض على طعام المسكين (في سورة الحاقة .

والمسكين : الفقير ، ويطلق على الشديد الفقرِ ، وقد تقدم عند قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين في سورة التوبة .

موقع الفاء صريح في اتصال ما بعدها بما قبلها من الكلام على معنى التفريع والترتب والتسبب .

" صفحة رقم 567 "

فيجيء على القول : إن السورة مكية بأجمعها أن يكون المراد بالمصلين عينَ المراد بالذي يكذب بالدين ، ويدُعّ اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فقوله) للمصلين (إظهار في مقام الإضمار كأنه قيل : فويل له على سهوه عن الصلاة ، وعلى الرياء ، وعلى منع الماعون ، دعا إليه زيادة تعداد صفاته الذميمة بأسلوب سليم عن تتابع ستِّ صفات لأن ذلك التتابع لا يخلو من كثرة تكرار النظائر فيشبه تتابع الإضافات الذي قيل إنه مُناكد للفصاحة ، مع الإشارة بتوسط ويل له إلى أن الويل ناشيء عن جميع تلك الصفات التي هو أهلها وهذا المعنى أشار إليه كلام (الكشاف) بغموض .

فوصفهم ب (المصلين) إذَنْ تهكم ، والمراد عدمه ، أي الذين لا يصلون ، أي ليسوا بمسلمين كقوله تعالى : (قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ((المدثر : 43 ، 44) وقرينة التهكم وصفهم ب) الذين هم عن صلاتهم ساهون).

وعلى القول بأنها مدنية أو أن هذه الآية وما بعدها منها مدنية يكون المراد) بالمصلين الذين

هم عن صلاتهم ساهون (المنافقين . وروَى هذا ابنُ وهب وأشهبُ عن مالك ، فتكون الفاء في قوله : (فويل للمصلين (من هذه الجملة لربطها بما قبلها لأن الله أراد ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض .

وجيء في هذه الصفة بصيغة الجمع لأن المراد ب) الذي يكذب بالدين (: جنس المكذبين على أظهر الأقوال . فإن كان المراد به معيناً على بعض تلك الأقوال المتقدمة كانت صيغة الجمع تذييلاً يشمله وغيره فإنه واحد من المتصفين بصفة ترك الصلاة ، وصفة الرياء ، وصفة منع الماعون .

وقوله : (الذين هم عن صلاتهم ساهون (صفة) للمصلين (مقيِّدة لحكم الموصوف فإن الويل للمصلي الساهي عن صلاته لا للمصلي على الإطلاق .

فيكون قوله) الذين هم عن صلاتهم ساهون (ترشيحاً للتهكم الواقع في إطلاق وصف المصلين عليهم .

وعدي) ساهون (بحرف) عن (لإفادة أنهم تجاوزوا إقامة صلاتهم وتركوها ولا علاقة لهذه الآية بأحكام السهو في الصلاة .

" صفحة رقم 568 "

وقوله : (الذين عن صلاتهم ساهون (يجوز أن يكون معناه الذين لا يؤدون الصلاة إلاّ رياء فإذا خلوا تركوا الصلاة .

ويجوز أن يكون معناه : الذين يصلون دون نية وإخلاص فهم في حالة الصلاة بمنزلة الساهي عما يفعل فيكون إطلاق) ساهون (تهكماً كما قال تعالى : (يراءون الناس ولا يذكرون اللَّه إلا قليلاً في المنافقين في سورة النساء .

و (يراءون) يقصدون أن يَرى الناسُ أنهم على حال حسن وهم بخلافه ليتحدث الناس لهم بمحاسنَ ما هم بموصوفين بها ، ولذلك كَثر أن تعطف السُّمعة على الرياء فيقال : رياء وسُمعة .

وهذا الفعل وارد في الكلام على صيغة المفاعلة ولم يسمع منه فعل مجرد لأنه يلازمه تكرير الإِراءة .

والماعون (: يطلق على الإِعانة بالمال ، فالمعنى : يمنعون فضلهم أو يمنعون الصدقة على الفقراء . فقد كانت الصدقة واجبة في صدر الإِسلام بغير تعيين قبل مشروعية الزكاة .

وقال سعيد بن المسيب وابن شهاب : الماعون : المال بلسان قريش .

وروى أشهب عن مالك : الماعون : الزكاة ، ويشهد له قول الراعي :

قوم على الإِسلام لما يمنعوا

ماعونهم ويضيّعوا التهليلا

لأنه أراد بالتهليل الصلاة فجمع بينها وبين الزكاة .

ويطلق على ما يستعان به على عمل البيت من آنية وآلات طبخ وشدّ وحفر ونحو ذلك مما لا خسارة على صاحبه في إعارته وإعطائه . وعن عائشة : الماعون الماء والنار والملح . وهذا ذم لهم بمنتهى البخل . وهو الشح بما لا يزرئهم .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : (هم يراءون (لتقوية الحكم ، أي تأكيده .

فأما على القول بأن السورة مدنية أو بأن هذه الآيات الثلاث مدنية يكون المراد بالمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون والصلاتتِ بعدها : المنافقين ،

فإطلاق المصلين عليهم بمعنى المتظاهرين بأنهم يصلون وهو من إطلاق الفعل على صورته كقوله تعالى : (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة ((التوبة : 64) أي يظهرون أنهم يحذرون تنزيل سورة .

) ويمنعون الماعون (أي الصدقة أو الزكاة ، قال تعالى في المنافقين : (ويقبضون أيديهم ((التوبة : 67) فلما عُرفوا بهذه الخلال كان مفاد فاء التفريع أن أولئك المتظاهرين بالصلاة وهم تاركوها في خاصتهم هم من جملة المكذبين بيوم الدين ويدُعُّون اليتيم ولا يحضّون على طعام المسكين .

وحكى هبة الله بن سَلاَمَة في كتاب (الناسخ والمنسوخ) : أن هذه الآيات الثلاث نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول ، أي فإطلاق صيغة الجمع عليه مراد بها واحد على حد قوله تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين ((الشعراء : 105) أي الرسول إليهم .

والسهو حقيقته : الذهول عن أمر سبق عِلمُه ، وهو هنا مستعار للإِعراض والترك عن عمد استعارة تهكمية مثل قوله تعالى : (وتنسون ما تشركون ((الأنعام : 41) أي تعرضون عنهم ، ومثله استعارة الغفلة للإعراض في قوله تعالى : (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين في سورة الأعراف وقوله تعالى : والذين هم عن آياتنا غافلون في سورة يونس ، وليس المقصود الوعيد على السهو الحقيقي عن الصلاة لأن حكم النسيان مرفوع على هذه الأمة ، وذلك ينادي على أن وصفهم بالمصلين تهكم بهم بأنهم لا يصلون .

واعلم أنه إذا أراد الله إنزال شيء من القرآن ملحقاً بشيء قبله جعَل نظم الملحق مناسباً لما هو متصل به ، فتكون الفاء للتفريع . وهذه نكتة لم يسبق لنا إظهارها فعليك بملاحظتها في كل ما ثبت أنه نزل من القرآن ملحقاً بشيء نزل قبله منه .

" صفحة رقم 570 "

" صفحة رقم 571 "